الاستدلال والحجاج عند طه عبد الرحمن
ملامح الإبداع والتجديد

بقلم: د. زكرياءالسرتي

أستاذ اللسانيات ومدير موقع ضياء للمؤتمرات، المملكة المغربية

ملخص:

نسعى من خلال ورقتنا البحثية إلى الإسهام في الجهود الأكاديمية التي يبذلها الباحثون، ضمن تخصصات معرفية متنوعة، لكشف خصائص البناء النظري الذي أقام صرحه الفيلسوف طه عبد الرحمن طيلة عقود من الاشتغال العلمي المتواصل.

ضمن هذا المنظور المعرفي المتميز، سيكون جهدنا منصبا على دراسة أحد أوجه الإبداع والتجديد في التراث المنطقي والفلسفي واللساني الذي أثله هذا المفكر؛ وهو مجال الاستدلال والحجاج الذي انشغل به أهل النظر والفكر قديما وحديثا، فكانت مقارباتهم ونظرياتهم بشأنه من الكثرة والتنوع والتعدد ما لا يسعنا حصره وضبطه. ولما كانت طبيعة المنهج الوصفي التحليلي الذي ارتضيناه لهذا البحث، تفرض تتبع التصورات المختلفة في المجال المعرفي المدروس فإننا سنتجه إلى إبراز جوانب الإبداع الذي طبع أعمال رائد المنطقيات واللغويات في العصر الحديث.

Résumé:

Nous cherchons à travers notre article à contribuer aux efforts des chercheurs universitaires, dans les différentes disciplines de la connaissance, afin de découvrir les caractéristiques de la structure théorique qui a été érigée par le philosophe Dr Taha Abdul-Rahman, durant des décennies de travail scientifique continu.

Dans cette perspective cognitive distincte, notre effort sera concentré sur l'étude d'une facette de créativité et de rénovation dans les travaux de logique, de philosophie et de linguistique produits par ce penseur; c'est le domaine de l'inférence et de l'argumentation qui a préoccupé les théoriciens

et les hommes de pensée depuis l'antiquité jusqu'à présent, le fait qui en a laissé leurs approches et théories très prolifiques, diversifiées et variées, au point de l'impuissance de le recenser et le cerner.

Puisque la méthode descriptive et analytique, que nous avons choisi pour ce travail, nous oblige à poursuivre les différentes conceptions dans le domaine cognitif étudié, nous allons mettre en évidence les aspects de la créativité qui ont caractérisé les travaux du pionnier des études logiques et linguistiques modernes.

الكلمات المفتاحية:الاستدلال والحجاج، طه عبد الرحمن، بناء المفاهيم، تحليل الخطاب.

مقدمة:

نسعى من خلال ورقتنا البحثية إلى الإسهام في الجهود الأكاديمية التي يبذلها الباحثون، ضمن تخصصات معرفية متنوعة، لكشف خصائص البناء النظري الذي أقام صرحه الفيلسوف طه عبد الرحمن طيلة عقود من الاشتغال العلمي المتواصل. وبعبارة أخرى، نقول إن بحثنا هذا يقصد الإسهام في مناقشة الجوانب التجديدية في مجال الإبداع الفكري والفلسفي وعلاقتهما بطرق بناء المفاهيم المعرفية للعلوم، انطلاقا من المشاريع الفكرية والفلسفية التي جسدها فكر طه عبد الرحمن في إصداراته المختلفة التي نظرّت لمفاهيم عديدة في العلوم الإنسانية والاجتماعية والفلسفية والسياسية وغيرها.

ضمن هذا المنظور المعرفي المتميز، سيكون جهدنا منصبا على دراسة أحد أوجه الإبداع والتجديد في التراث المنطقي والفلسفي واللساني الذي أثله طه عبد الرحمن؛ وهو مجال الاستدلال والحجاج الذي انشغل به أهل النظر والفكر قديما وحديثا، فكانت مقارباتهم ونظرياتهم بشأنه من الكثرة والتنوع والتعدد ما لا يسعنا حصره وضبطه.ولما كانت طبيعة المنهج الوصفي التحليلي الذي ارتضيناه لهذا البحث، تفرض تتبع التصورات المختلفة في المجال المعرفي المدروس فإننا سنتجه إلى إبراز جوانب الإبداع الذي طبع أعمال رائد المنطقيات واللغويات في العصر الحديث.

ونرى من الضروري أن نعرض بعض المحاور التي سيتم الاشتغال عليها بيانا وتحليلا واستنباطا كما يلي:

1- فمن جهة أولى، نحن معنيون أساسا بدراسة ما صاغه طه عبد الرحمن من مفاهيم وآليات قادرة على تحليل الخطاب الطبيعي، وعلى رأسها الاستدلال والحجاج. وفي الوقت ذاته، نحن معنيون بدراسة ما له صلة بعملية الحجاج مثل مفاهيم الكلام والتواصل والخطاب الطبيعي؛ فإذا كان الكلام قائما على علاقة تخاطبية تمكن المتكلم من إجراء النقل والتبليغ، وتتعدد بهما ذواته المتواصلة والمتعاملة (فروعا ورتبا)، فإن تمييز الخطاب يقتضي بيان نمط علاقته كذلك. فالخطاب الطبيعي يتصف، في نظر طه عبد الرحمن، بملازمة مضمون القول لصورته وملازمة القول لمقامه.وتعني هذه الملازمة حضور السياق وملابساته في ثنايا القول ذاته، واستحالة الاكتفاء، في تأويل الأقوال المنجزة، بصورها فحسب كما هو شأن الاستدلال الصوري الذي لا يؤلف خطابا بالمعنى القوي أو الصحيح.

2- ومن جهة ثانية، نسعى إلى استخلاص معالم الإبداع الفكري واللغوي في الإنتاج الاستدلالي الحجاجي الذي أثلهطه عبد الرحمن، سالكين مسلك المقارنة مع ما بناه غيره من البلاغيين واللسانيين في مراحل سابقة أو مزامنة. وقد تضمنت هذه الورقة البحثية، في ثناياها، بعضا من نتائج الدراسة والتحليل، كما أجلنا الحديث عن بعضها إلى خاتمتها.

1. المبحث الأول: الدلالات اللغوية والاصطلاحية للحجاج:

قبل أن نتطرق إلى ما قدمه الدكتور طه عبد الرحمن بشأن مفاهيم الحجاج والبرهان والاستدلال، نحب أن نمهد بالحديث عن الدلالات اللغوية الخاصة بالحجاج في المعاجم العربية والفرنسية، وما قدمه بعض الباحثين من دلالات اصطلاحية، لنقف فيما بعد عند جوانب التميز في موضوع بحثنا.

يرتبط الجذر اللغوي {ح،ج،ج} بدلالات لغوية متنوعة ومترابطة، نذكر منها ما يلي:[1]

– دلالة القصد: «الحَجُّ: القصدُ. وحَجَّه يَحُجُّه حَجّاً: قصده. وحَجَجْتُ فلاناً واعتَمَدْتُه أَي قصدته. ورجلٌ محجوجٌ أَي مقصود.»

– دلالة التخاصم والتنازع: «والتَّحاجُّ: التَّخاصُم؛ وجمع الحُجَّةِ: حُجَجٌ وحِجاجٌ. وحاجَّه مُحاجَّةً وحِجاجاً: نازعه الحُجَّةَ.»

– دلالة الطريق والبرهان والدليل والجدل.

– دلالة الغلبة والظفر: وحَجَّه يَحُجُّه حَجّاً: غلبه على حُجَّتِه. واحْتَجَّ بالشيءِ: اتخذه حُجَّة.» وفي القاموس المحيط:«الحَجُّ: القَصْدُ، والكَفُّ، والقُدُومُ، (...) والغَلَبَةُ بالحُجَّةِ، وكَثْرَةُ الاخْتِلافِ والتَّرَدُّدِ.»[2]

وبين الحجة والبرهان نجد اتصالا وانفصالا في الآن ذاته؛ فـ«البُرْهان الحُجّة الفاصلة البيّنة، يقال: بَرْهَنَ يُبَرْهِنُ بَرْهَنةً إذا جاء بحُجّةٍ قاطعة لِلَدَد الخَصم، فهو مُبَرْهِنٌ. الزجاج: يقال للذي لا يبرهن حقيقته إنما أَنت متمنٍّ، فجعلَ يُبَرْهن بمعنى يُبَيِّن، وجَمْعُ البرهانِ براهينُ. وقد بَرْهَنَ عليه: أَقام الحجّة.»[3] ولقد أثبت صاحب الصحاح الدلالات نفسها[4]وهذا ما

[1] ابن منظور الأفريقي المصري أبو الفضل جمال الدين مُحَمَّد بن مكرم، **لسان العرب**، الطبعة الأولى (بيروت: دار صادر)، الجزء الثاني، ص ص 226-230.

[2] الفيروز آبادي مجد الدين مُحَمَّد بن يعقوب، **القاموس المحيط**، ضبط وتوثيق: يوسف الشيخ مُحَمَّد البقاعي، (دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع 1995)، ص167.

[3] ابن منظور، **لسان العرب**، الجزء الثالث عشر، ص 51.

[4] "البُرْهانُ: الحُجَّةُ. وقد بَرْهَنَ عليه، أي أقامَ الحجّة". انظر: اسماعيل بن حماد الجوهري، **الصحاح، تاج اللغة وصحاح العربية**، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، الطبعة الرابعة (بيروت: دار العلم للملايين، يناير 1990)، المجلد الخامس ص 2078.

يجعلنا نحدد الفرق بين الحجة والبرهان في امتياز هذا عن تلك بالفصل والبت والحسم، بما ينهي الخصومة والخلاف بين الطرفين المتنازعين.

أمافي المعاجم اللغوية الفرنسية فثمة دلالات مرتبطة باللفظ: "argumentation" تتجلى اختصاراً فيما يلي:[5]

- القيام باستعمال الحجج.
- مجموعة من الحجج التي تستهدف تحقيق نتيجة واحدة.
- فن استعمال الحجج أو الاعتراض بها في مناقشة معينة.

إن هذه الدلالات المختلفة تكشف منزلة الحجاج لدى الإنسان وخصوصا إذا استحضرنا حقيقة كون «المحاجة موجودة في كل مكان: في الخطاب السياسي ومرافعة المحامي واللافتة الإشهارية والمفاوضات التجارية والحوار الجاري في المقهى ومناقشة الرسالة الجامعية..."[6]، وكون هذا "الوجود المتعدد" مفتاحا للتكاثر النظري والمفهومي، مما يجعلنا نتجاوز تحديد الدلالات اللغوية إلى النظر في مختلف التعاريف الاصطلاحية التي صيغت بشأنه.

فالحجاج هو "إجراء بوساطته يحاول شخص-أو جماعة- حمل مستمع على تبني موقف من خلال اللجوء إلى عروض أو إثباتات-حجج-تهدف إلى إظهار صحته أو

[5] Le grand robert : **dictionnaire de la langue française**, (Paris : 1989), T.1.p :535.
وانظر أيضا:
LE NOUVEAU PETIT ROBERT,(Montréal,Canada,1993).p :119.

[6] إيف جانري، "نظريات المحاجة: اكتشاف جديد خصب"،ترجمة: محمد يحياتن، مراكش: **الملتقى**، العدد 3، السنة الثالثة (1999).

صوابه"[7] وقد استخرج بيير أوليرون Pierre Oléron من هذا التعريف ثلاث خصائص رئيسة للحجاج:[8]

1. يستدعي الحجاج عددا كبيرا من الأشخاص: الذين ينتجونه، والذين يتلقونه، وعند الاقتضاء جمهور أو شهود. إنه ظاهرة اجتماعية.

2. ليس الحجاج ممارسة تأملية، كما هو الشأن في وصف مادة، وسرد حدث. إنه إجراء من خلاله يهدف شخص إلى ممارسة تأثير في الآخر.

3. يستدعي الحجاج مسوغات وأدلة لصالح الأطروحة المدافع عنها، والتي لم تفرض بالقوة. إنه إجراء يتألف من عناصر عقلية، وهكذا يرتبط بالاستدلال والمنطق.

وفي ذات السياق، يقدم ميشال مير معنيين مترابطين قائلا: «يعرف الحجاج عادة بوصفه جهدا إقناعيا. وسيصبح البعد الحجاجي أساسيا في اللغة، بكون كل خطاب يسعى إلى إقناع من يتوجه إليه.من جهة أخرى، يميز الحجاج كذلك بوصفه استدلالا غير صوري، وغير مُلزمفي تعارض مع الاستدلال المنطقي، مع الضرورة الصارمة وبدون استدعاء. هذان التعريفان مترابطان: إذ لا يقعالحجاج إلا بسبب كون العقول لا تترابط مع الضرورة المطلقة (أو الحتمية) للرياضيات، و بالتالي وجود موضع لخلاف محتمل.»[9]

لكن م. مير، في موضع آخر من كتابه: المنطق واللغة والحجاج، يعرب عن تمسكه بتعريف مقتضب: «الحجاج هو دراسة الصلة بين المعنى الصريح والمعنى الضمني. وأحسبه التعريف الأكثر عمومية، الذي بإمكاننا أن نعطيه للحجاج.»[10]

[7] Pierre Oléron : **L'ARGUMENTATION, QUE SAIS-JE?** 2087, (Paris: Presses Universitaires de France, 1983), p :4,
[8] ibid. pp :4-5.
[9] Michel Meyer : **Logique, langage, et argumentation**, Hachette 2 éd, Paris 1982, P 136.
[10] ibid. P 112.

طبعا، يبدو الحجاج، إلى هذا الموضع من التحليل، مجالا مشتركا بين كونه إجراء عقليا واستدلاليا، وجهدا إقناعيا يتوجه به إلى مخاطب أو جمهور، وكونه ظاهرة اجتماعية تتطلب إلماما بمعطيات سوسيولوجية متنوعة ومفيدة.

الحجاج إذاً ممارسة تواصلية أو تداولية تقتضي مشاركة أطراف متفاعلة عبر الرسائل المتبادلة، اللغوية وغير اللغوية ،وهذا ما يستدعي البعد الاجتماعي المقامي للحجاج. فـ«الاهتمام بالحجاج يرتبط بعدد من العوامل، بعضها نظري بشكل خاص وبعضها الآخر سوسيولوجي: نظرية الحجاج تطورت دائما اعتمادا على عدد من الاعتبارات العقلية وفي سياق اجتماعي متميز.»[11]

يدفعنا هذا القول الأخير إلى المبادرة بصياغة وطرح أسئلة ذات صلة: ما المقصود بالسياق الاجتماعي المتميز؟ وفيم يقع الترابط بين النمو النظري للحجاج والسياق الاجتماعي المذكور؟ وهل ينبني الترابط على التشارط؟

يتمثل السياق الاجتماعي المتميز في نمط المجتمع الذي يحتضن ويغني الممارسة الحجاجية. إذ تكون الحظوظ وافرة، في كل مجتمع لائكي ديمقراطي محب للسلام، يغمره الحذر والارتياب أيضا، ليتضاعف الاهتمام بالحجاج. إنه لا يتعلق بحقيقة مفروضة بل باعتقاد مؤسس. وهو، من جهةأخرى، مسألة توافق أكثرمن كونه مسألة وثوق وتأكد Elle est affaire moins de certitude que de consensus. على نفس النهج، لا يمكن تعاطي الحجاج في إطار نظام استبدادي أو شمولي؛ ولا يكون له معنى بالشكل التام، من جهة أخرى، إلا في مجتمع أساسه المساواة أو، على الأقل، مجتمع تعددي حيث تتخذ القرارات جماعيا. الحجاج يوجب كذلك التخلي عن القوة والعنف والمواجهة الحربية. بالتأكيد، لا

[11] Philippe Breton, Gilles Gauthier : **Histoire des théories de l'argumentation**, (Paris: La Découverte. Repères :292. 2000), p :3

يوجد حجاج إلا حيث يوجد خلاف؛ لكنه (أي الحجاج) يفرض معالجة سوء التفاهم عبر المناقشة والجدل الخطابي، دون المواجهة الحربية.[12]

إن الطابع الاجتماعي للحجاج يظل بعدا غنيا يدفع المشاركين فيه إلى ابتكار سبل استدلالية متنوعة تكفل تحقيق الإقناع، ومن ثم إشراك الآخر في قبول الأطروحة المتضمنة في الخطاب التواصلي. كما أن العناية بهذا الطابع الاجتماعي المقامي ليست وليدة اليوم، فـ« دون الدخول في التفاصيل والفروق التي تستدعيها دراسة تاريخية جديرة بالثقة، ينبغي التذكير على الأقل بأن الموقف المعتمد بشأن الحجاج وطريقة تصوره يتوقفان على السياق الاجتماعي. فالمكانة، التي أسندها إليه الكتاب اليونانيون، مرتبطة بالحرية والثقل المسندين إلى الكلام في حياة المواطنين وإدارة المدينة.(...) والاهتمام المتجدد بالحجاج، في عصرنا هذا، مرتبط باستخدامه المؤكد الذي ينجم هو نفسه عن حرية الأفراد، التي تسلم بها الأنظمة السياسية، وتحث عليها – نظريا – التربية، وكذا عن تفشي وسائل التواصل الجماهيرية.»[13]

لا نشك في أن الحجاج ظل متعدد الأبعاد في الحياة الثقافية والتواصلية للمجتمعات البشرية، على مر تاريخ طويل من التفاعل الموجه والعفوي، الشيء الذي جعله يرتبط بأهداف محددة كما يذهب إلى ذلك بيير أوليرون الذي يرى أن تعريف الحجاج يحدد الهدف العام الذي يخصص تقليديا بتمييز ثلاثة أصناف:[14]

1. البحث عن إشراك الآخر في الاقتناع: في هذه الحالة، يكون مستعمل الحجاج مقتنعا بأطروحة معينة، ويسعى فقط إلى إشراك الغير في هذا الاقتناع.

2. المداولة: على العكس، يتم تحديد الرأي أو الموقف المناسب بعد الحجاج.

3. التسويغ: لا يبتعد عن الحالة الأولى، لأن ما يراد تسويغه وتبريره هو معطى ومثبت.

---

[12] ibid. p :4-5.
[13] Pierre Oléron : **L'ARGUMENTATION**, p8.
[14] ibid. p106.

2. المبحث الثاني: الكلام والخطاب:

إذا كانت اللسانيات السوسيرية قد خلقت منعطفا جديدا في تاريخ البحث اللغوي بشكل عام، خاصة حينما أولت الاهتمام للسان ونظامه وعلائقه، وتجاهلت الكلام لأنه ينزع إلى الخصوصية ولا يعكس بالتالي ذلك "الجانب المنظم" للظاهرة اللغوية، فإنها (أي لسانيات سوسير) فتحت الباب أمام نظريات جديدة باتت تركز على الجانب الفردي للظاهرة اللغوية. ولا ريب أن وجود عدد من الباحثين ممن حادوا عن فكر "سوسير"، سهل تجاوز فكرة كون اللغة هي محور الدراسة اللسانية، باتجاه دراسة الجانب الفردي منها (الكلام). من بين هؤلاء نجد "أندري مارتيني" A. Martinet الذي أولى أهمية للفظ، واعتبر معالجته من الطرق التي تؤدي إلى معرفة اللغة، يقول: «إن هذا التمييز بين اللغة والكلام... قد يؤدي إلى الاعتقاد أن نظام اللغة ونظام الكلام مستقلان عن بعضهما البعض... والحال أنه ينبغي أن نقتنع ونسلم أن الكلام هو الذي يجسد نظام اللغة ولا يمكن التوصل إلى معرفتها دون معالجةالكلام.»[15] ومن المفيد في هذه العجالة، أن نشير أولا إلى مدى حضور "الخطاب" في محاضرات دوسوسير، وثانيا إلى الفروق بين الكلام والخطاب.

يرد لفظ الخطاب في "محاضرات في اللسنيات العامة" لفردناند دو سوسير مرات قليلة كما نجد في الورودين التاليين:[16]

- استعمال لفظ خطاب في سياق تحديد مفهوم "الكلام"، ومقابلته بالألفاظ المشابهة له في اللغات الأوروبية.

---

[15] A. Martinet, **Eléments de linguistiquegénérale**, (Paris: Armand Colin, 1970), p 25.

[16] وفقا لملاحظة الباحث مُحَمَّد البكري الذي قدم دراسة قيمة بشأن تحليل الخطاب، أنظر: "التحليل اللساني للخطاب السياسي، خطابالحركة الوطنية المغربية نموذجا"، (بحث لنيل دبلوم الدراسات العليا، السنة الجامعية 1992-1993، كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط)، ص 67.

– يرد لفظ الخطاب ثانيا في سياق تحديد القيم المتولدة عن العلاقات والفروق التي تميز عناصر اللسان بعضها عن بعض في المحورين الجدوليوالمركبي. وعلى مستوى المحور المركبي ترتبط الكلمات كما هو معروف، بعلاقات خاصة في السلسلة المتكلمة. إذ تعقد الكلمات – بفضل تسلسلها– فيما بينها، وداخل الخطاب، علاقات قائمة على الطابع السطري للسان. وهو طابع يجعل من المستحيل النطق بعنصرين "وحدتين لسانيتين مهما صغرتا" دفعة واحدة.

يقول رولان بارث R. Barthe: «الكلام مكون أولا من التركيبات التي تستطيع الذات المتكلمة بفضلها استعمال شفرة اللسان قصد التعبيرعن فكرها الخاص،ويمكن أن يسمىهذا الكلامخطابا، ثم من الإواليات النفسيةالفيزيائية التيتمكنه من تجسيد هذه التركيبات.»[17] ولعل اشتراك الذات بشكل أساس في انتقاء التركيبات قصد التعبير عن فكرها الخاص، هو ما يجعل بعض الباحثين يقول: «إن الكلام يضمن الحياة لهذا النظام الذي هو اللغة.»[18] والمعنى ذاته يؤيده جورج مونان بقوله: «اللغة هي كل نظام، من العلامات الصوتية الملفوظة بشكل مزدوج، خاص بجماعة إنسانية معينة.»[19]

إن العلاقة بين اللغة واللسان والكلام تحتاج إلى بيان نجد جانبا منه لدى عبد السلام المسدي الذي يقول: «إذا ابتغينا استيعاب القضية كلياً من خلال مفاهيمها الثلاثة: اللغة واللسان والكلام أطلقنا عبارة "الظاهرة اللغوية"...هكذا يتيسر لنا (...) أن نجري الموازاة المتحتمة بين ما هو عام وما هو نوعي وما هو فردي أي بين لغة الناس ولسان الجماعة وكلام الأفراد: فاللغة مفهومكلي واللسانمفهوم نمطيأما الكلام فمفهوم إنجازي»[20]. ويضيف

---

[17] رولان بارث، **مبادئ في علم الأدلة**، ترجمة محمد بكري، (الدار البيضاء: دار قرطبة للطباعة والنشر، 1986)، ص 35.

[18] AnricoArcaini, **Principes de linguistiqueappliquée**, Paris Bibliothèque scientifique Payot, 1972, P 59.

[19] G. Mounin (en collaboration) : **Dictionnaire de la linguistique**, (Paris: Presses universitaires de France, 1974),p196.

[20] عبد السلام المسدي، **اللسانيات وأسسها المعرفية**، (تونس: الدار التونسية للنشر 1986)، ص 86.

الباحث إلى ما سبق كون المدونة في كل بحث لغوي هي اللغة الموضوعة والخطاب اللساني المستنبط منها هو اللغة المحمولة، فتلك بنية قائمة، وهذه بنية مشتقة[21].

بعد كل ما ذكر، نصوغ السؤال التالي: ألا يكفي النظر إلى الكلام، بوصفه مفهوما إنجازيا أو أداة لتنزيل اللغة، وهي المفهوم الكلي، وربطها بملابسات المقام والظروف الاجتماعية والنفسية المحيطة بالعملية التخاطبية؟ سنقول: إننا في مسيس الحاجة إلى اعتماد نظرية تكوثر الكلام والخطاب والحجاج التي صاغها طه عبد الرحمنلنتمكن من بيان حقيقة الكلام التي « ليست هي الدخول في علاقة بألفاظ معينة بقدر ما هي الدخول في علاقة مع الغير، بمعنى أن الذي يحدد ماهية الكلام إنما هو "العلاقة التخاطبية"، وليس العلاقة اللفظية وحدها:فلا كلام بغير تخاطب، ولا متكلم من غير أن تكون له وظيفة "المخاطب" (بكسر الطاء)، ولا مستمع منغير أن تكون له وظيفة "المخاطب" (بفتح الطاء) »[22].

فالعلاقة التخاطبية تجعل المتكلم بعيدا عن الممارسة الآلية لعملية النقل، منصرفا إلى نقل يجتمع فيه الصريح والضمني. ويدعى هذا النمط من النقل "التبليغ" الذي: «هو عبارة عن نقل فائدة القول الطبيعي نقلا يزدوج فيه الإظهار والإضمار؛ فيتبين أن المتكلم ليس ذاتا ناقلة، حتى تجوز مماثلته بـ"جهاز للإرسال" أو قل "المرسل"، وإنما هو ذات مبلغة، أي ذات لا تقصد ما تظهر من الكلام فقط، بل تجاوزه إلى قصد ما تبطن فيه، معتمدة على ما أوردت في متنهمن قرائن وماورد منها خارجه.»[23]

ويستدعي تمييزُ نمط العلاقة التي يقوم عليها الكلام مراقبةَ وتصنيف الذوات المتعددة التي يتقلب بينها المتكلم في مضمار النقل أو التبليغ. ولهذا «يتضح منجملة ما تقدم أن

[21] المرجع السابق، ص 158.

[22] طه عبد الرحمن، **اللسان والميزان أو التكوثر العقلي**،، ط1(الدار البيضاء- بيروت: المركز الثقافي العربي 1998)، ص215.

[23] المرجع السابق، ص216.

حقيقة الكلامالانبناء على العلاقة التخاطبية، وأنه لا علاقة تخاطبية إلا بين جانبين فأكثر يكون للمتكلم فيها فضل السبقفي إقامتها كما يكون له حق الانتهاض فيها بأدوار مختلفة، مما يجعله، لا ذاتا واحدة، وإنما ذوات متعددةبعضها فوقبعض.»[24]، ونستطيع أن نحدد أنواع ومراتب الذوات التي يتقلب بينها المتكلم استنادا إلى ما ورد لدى طه عبد الرحمن:[25]

الذوات المتعددة للمتكلم[26]:

المتخلقة	هي الذات التي تأخذ في الفعل القولي بآجل الانتفاع به، خدمة لمقام الغير وقياما بشرط الإنسانية، فضلا عن عاجله.
المتأدبة	هي الذات التي لا تجاوز بفعل القول حد عاجل الانتفاع به، تحقيقا لغرض أو طلبا لعوض.
المبلغة	هي الذات التي تأخذ بباطن الأقوال، تلميحا وتجوزا، فضلا عن ظاهرها.
الناقلة	هي الذات التي لا تجاوز بالقول حد ظاهر معناه، تصريحا وتحقيقا.

[24] المرجع السابق، ص224.

[25] المرجع السابق، ص 224.

[26] الجدول اجتهاد شخصي.

وإذا كان الكلام قائما على علاقة تخاطبية تمكن المتكلم من إجراء النقل والتبليغ، وتتعدد بهما ذواته المتواصلة والمتعاملة (فروعا ورتبا)، فإن تمييز الخطاب يقتضي بيان نمط علاقته كذلك. فالخطاب الطبيعي يتصف ، في نظر طه عبد الرحمن، بملازمة مضمون القول لصورته وملازمة القول لمقامه.[27] وتعني هذه الملازمة حضور السياق وملابساته في ثنايا القول ذاته، واستحالة الاكتفاء، في تأويل الأقوال المنجزة، بصورها فحسب كما هو شأن الاستدلال الصوري الذيلا يؤلف خطابا بالمعنى القوي أو الصحيح. فالأقوال التي يتألف منها هذا الاستدلال مستقلة بعضها عن بعض، بحيث يكون كل قول منها معبرا عن قضية معينة، أي محددا حالة (أو مجموع حالات) حقيقية أو مفترضة لهذا العالم. لهذا، لا يكون تسلسل الأقوال، في استدلال ما، مؤسسا على الأقوال ذاتها لكن على القضايا المتضمنة فيها، على ما تقوله أو تفترضه حول العالم.[28]

زيادة على خاصية "الملازمة" المذكورة من قبل، يظل السؤال حول "العلاقة" المميزة للخطاب قائما نحتاج معه إلى بسط جواب مكمل يكشف جوانب تلك العلاقة، خصوصا إذا ثبت لدينا أن ماهية الخطاب تتجاوز مجرد إقامةعلاقة تخاطبية بينجانبين فأكثر، «لأن هذه العلاقة، على قدرها وفائدتها، قد توجد حيث لا يوجد طلب إقناع الغير بما دار عليه الخطاب؛ فقد يحصل أحد الجانبين القصدين المطلوبين في قيام هذه العلاقة، وهما: قصد التوجه إلى الآخر وقصد إفهامه مرادا مخصوصا، من غير أن يسعى إلى جلب اعتقاد أو دفع انتقاد، ولا أن يزيد في يقين أو ينقص من شك؛ وإنما حقيقة الخطاب تكمن في كونه يضيف إلى القصدين التخاطبيين المذكورين قصدين معرفيين هما: "قصد الادعاء" و"قصد الاعتراض"»[29].

---

[27] طه عبد الرحمن، **اللسان والميزان**، ص 227.

[28] Ducrot Oswald : **Les échelles argumentatives**, **(**Paris : Les éditions de minuit, 1980), p 10.

[29] طه عبد الرحمن، **اللسان والميزان**، ص 225.

أما قصد الادعاء، فمقتضاه أن المنطوق به لا يكون خطابا حقا إلا إذا اجتمع لدى الناطق أمران اثنان؛ أحدهما الاعتقاد الصريح فيما يقول وثانيهما الاستعداد التام لإقامة الدليل عليه عند الضرورة. وأما قصد الاعتراض، فمقتضاه أن المنطوق به لا يكون خطابا حقاإلا إذا كان للمنطوق له حق مطالبة الناطق بالدليل على ما يدعيه.

ولما كان لقصدي الادعاء والاعتراض حضور جلي في الخطاب، فإن العلاقة الاستدلالية تصير المعيار المميز لهذا المفهوم، وفي الوقت ذاته يكون الخطاب متلازما مع الحجاج وأوضاعه ونتائجه: «وهكذا، يتضح أن حقيقة الخطاب ليست هي مجرد الدخول في علاقة مع الغير، وإنما هي الدخول معه فيها على مقتضى الادعاء والاعتراض، بمعنى أن الذي يحدد ماهية الخطاب إنما هو "العلاقة الاستدلالية"، وليس العلاقة التخاطبية وحدها: فلا خطاب بغير حجاج، ولا مخاطب (بكسر الطاء) من غير أن تكون له وظيفة "المدعي" ولا مخاطب (بفتح الطاء) من غير أن تكون له وظيفة "المعترض"»[30].

إن ذلك التلازم بين الخطاب والحجاج هو ما يجعله ديكرو ثابتاً من جملة الثوابت في الدراسة اللسانية. يقول: «عندما يتعلق الأمر بالخطاب، يبدو الوضع مختلفا كليا. ففيه يكون تسلسل الأقوال ذا مصدر داخلي، إنه مؤسس على طبيعة القول، أو إن شئنا، على معنى القول لا على حالة العالم التي يحيل عليها. والحال أن المحور الأساس للنظرية الحجاجية هو كون معنى قول ما يتضمن إشارة مباشرة إلى تكملته المحتملة: أمر جوهري إذاً أن يستدعي هذه التتمة أو تلك، وأن يقصد إلى توجيه الخطاب التالي في هذا الاتجاه أو ذاك»[31].

ومن البين أن حقيقة العلاقة الاستدلالية للخطاب تدفع – حسب طه عبد الرحمن – باتجاه تعدد أنواع ومراتب الحجاج بالنظر إلى قصدي الادعاء والاعتراض اللذين يجيئان حينا

[30] طه عبد الرحمن، **اللسان والميزان**، ص 226.

[31] DUCROT O., **les échellesargumentatives**,op. cit. p 10-11.

على مقتضى التجريد، وحينا آخر على مقتضى التفريق، وحينا ثالثا على مقتضى الجمع، «مما يجعل العلاقةالاستدلالية ضروبا ثلاثة بعضها فوق بعض، وهي "الحجاج التجريدي"، وهو الاستدلال الذي يتعاطى فيه المحتج تقليد البرهان الصناعي، و"الحجاج التوجيهي"، ويفوق الأول رتبة، وهو الاستدلال الذي يقتصر فيه المحتج على اعتبار وجهة المدعي وحدها، وأخيرا "الحجاج التقويمي"، وهو أعلاها جميعا، إذ هو الاستدلال الذي يأخذ فيه المحتج بوجهة المعترض، فضلا عن وجهته الخاصة بوصفه مدعيا»[32].

وبإمكاننا أن نتأمل الجدول التالي الذي نصطنعه لتوضيح ما يقصده طه عبد الرحمن حينما يميز بين الأنواع الثلاثة للحجاج، وكل نوع منها يمكن أن يتضمن رتبا فرعية مختلفة:[33]

نوع الحجاج	تعريفه
الحجاج التجريدي	هو الإتيان بالدليل على الدعوى على طريقة أهل البرهان، علما بأن البرهان هو الاستدلال الذي يعنى بترتب صور العبارات بعضها على بعض بصرف النظر عن مضامينها واستعمالاتها.
الحجاج التوجيهي	هو إقامة الدليل على الدعوى بالبناء على فعل التوجيه الذي يختص به المستدل، علما بأن التوجيه هو هنا فعل إيصال المستدل لحجته إلى غيره.
الحجاج التقويمي	هو إثبات الدعوى بالاستناد إلى قدرة المستدل على أن يجرد من نفسه ذاتا ثانية ينزلها منزلة المعترض على دعواه. (...) وهكذا، فإن المستدل يتعاطى لتقويم دليله بإقامة حوار حقيقي بينه وبين نفسه، مراعيا فيه كل مستلزماته التخاطبية من قيود تواصلية وحدود تعاملية، حتى كأنه عين المستدل له في الاعتراض على نفسه.

3. المبحث الثالث: الاستدلال والحجاج والبرهنة:

[32] طه عبد الرحمن، **اللسان والميزان**، ص ص 228-229.

[33] طه عبد الرحمن، اللسان والميزان، ص ص 226-228.

إذا كانت الدلالات اللغوية المذكورة سابقاً تخلط بين الحجاج والبرهنة والاستدلال، فإن عددا من الباحثين وأهل النظر في المجالات الفلسفية واللسانية والتداولية ألحوا على وجوب الفصل أو التمييز بين الحقول الخاصة بكل مفهوم على حدة.

إن الاستدلال مفهوم عام جدا يشمل كل عمليات البرهان على قضية ما انطلاقا من قضايا أخرى، بما في ذلك: الاستقراء والقياس التمثيلي. فانتقالنا مثلا من كون النحاس والحديد والقصدير أجساما موصلة للحرارة إلى أن كل معدن موصل للحرارة، يعتبر استدلالا بالاستقراء. أما في المنطق الصوري، فيفهم بالاستدلال، استخراج قضية من قضية أو أكثر بسبب معنى القضايا أو مبناها. ويقسم المنطق التقليدي الاستدلال الصوري إلى استدلال مباشر واستدلال قياسي أي قياس. في الاستدلال المباشر يجري استخراج قضية جديدة من قضية واحدة فقط. أما في القياس، فيتم الاستدلال من قضيتين أو أكثر[34].

لقد ميز المشتغلون بالحجاج والجدل والإقناع منذ أرسطو بين الخطاب الحجاجي والخطاب البرهاني، وبينوا معالم التعارض القائم بينهما، وكان مدار التمييز والتعارض دائما هو ارتباط الحجاج بالمحتمل والقريب من الحق، وارتباط البرهنة بالصادق والمثبت. ثم إن «مدار البرهان هو إنتاج قول يبلغ به الإنسان اليقين في مجال الضروري ومدار الجدل هو امتحان قول لبناء قول نقارب به اليقين في مجال الممكن ومدار الخطابة هو إنتاج قول نبني به الإقناع في مجال المحتمل. فهذه الأقاويل الثلاثة درسها أرسطو باعتبارها تتنزل في فضاء ثلاثي الأطراف وهي القول والاعتقاد وجهة الوجود»[35]. ومن ثم، كانت المقدمات التي ينطلق منها الجدل مجرد أفكار مشهورة وآراء مقبولة، وكانت مقدمات البرهان إثباتات صادقة تسمح بالوصول، عبر الانتقالات الاستدلالية، إلى نتائج حتمية ضرورية.

---

[34] معن زيادة،**الموسوعة الفلسفية العربية**، معهد الإنماء العربي، المجلد الأول، الطبعة الأولى 1986، ص ص 56-57.

[35] هشام الريفي، **الحجاج عند أرسطو** (كتاب جماعي: أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم)، ص 110.

أما طه عبد الرحمن فهو يؤكد أن «حقيقة الاستدلال في الخطاب الطبيعي أن يكون حجاجيا لا برهانيا صناعيا»[36]. فالحجاج يرتبط بالخطاب الطبيعي أو اللغات الطبيعية، بينما تستعمل البرهنة في اللغات الصناعية والرمزية. ويبدو هذا التمييز واضحا في تعريفه للحجاج بكونه «فعالية تداولية جدلية»[37]، مما يجعل جهد المحاج قائما على إدراك جانبين اثنين:

1. جانب تداولي، لأن الطابع الفكري للحجاج مقامي واجتماعي، إذ يأخذ بعين الاعتبار مقتضيات الحال من معارف مشتركة ومطالب إخبارية وتوجهات ظرفية، ويهدف إلى الاشتراك جماعيا في إنشاء معرفة عملية، إنشاء موجها بقدر الحاجة.

2. جانب جدلي، لأن تحقيق الهدف الإقناعي يقوم على التزام صور استدلالية أوسع وأغنى من البنيات البرهانية الضيقة.

إن إدراك المشارك في العملية الحجاجية للجانب الجدلي، يحتم عليه القيام بسلسلة من الاستدلالات المباينة لما هو معروف متداول في البرهنة العلمية. وهكذا «تبنى الانتقالات فيه، لا على صور القضايا وحدها كما هو شأن البرهان، بل على هذه الصور مجتمعة إلى مضامينها أيما اجتماع، وأن يطوى في هذه الانتقالات الكثير من المقدمات والكثير من النتائج، وأن يفهم المتكلم المخاطب معاني غير تلك التي نطق بها، تعويلا على قدرة المخاطب على استحضارها إثباتا أو إنكارا كلما انتسب إلى مجال تداولي مشترك مع المتكلم، وكأن يعتمد فيها على صور استدلالية تأخذ بمبدأ التفاضل و"التراتب"، وتجنح أحيانا إلى التناقض الذي لا تحس فيه خروجا عن حدود المعقول»[38].

4. المبحث الرابع: الحجج، التعريف والتصنيف:

[36] طه عبد الرحمن: **في أصول الحوار وتجديد علم الكلام**، ط2(المركز الثقافي العربي، 2000)، ص65.

[37] المرجع السابق، ص65.

[38] المرجع السابق، ص65.

تختلف نظريات الحجاج في تحديد مفهومي الحجة والدليل، وهذا ما يجعلها تبني أنساقا متباينة لدراسة هذا المجال، بحسب الصلات الظاهرة أو الضمنية مع المكونات والمجالات النظرية المختلفة. فتاريخ النظريات يشير إلى علاقة الحجاج بالبلاغة والتواصل والاستدلال والمنطق والعقلانية والتلاعب. ولهذا نرى أن مسألة تعريف الحجة في بعض النظريات تستدعي:

- الحديث عن الاستدلال الصوري والبرهنة بما يمكن من رصد الاختلاف بين الحجة في اللغات الطبيعية والبرهان المتسم بالصرامة والحتمية الاستدلالية في اللغات الاصطناعية.
- بيان الرؤية البلاغية للحجة، وهذا ما يسمح بالحديث عن الاستعارة والسلطة والمعتقدات المشتركة داخل مجتمع معين.
- الوقوف عند الجانب الأخلاقي للحجة، وهذا قد يكشف التلاقي بين الحجة والتلاعب السياسي والإيديولوجي.

إذا رجعنا مرة أخرى إلى الدلالة الاصطلاحية للحجة في القاموس، فإننا نعثر على معنيين اثنين:[39]

1. في البلاغة، نعتبر حجة كل قضية تقصد إلى الإقناع. وبحسب الصور، تم التمييز بين الحجج التي تنعقد بالتماثل والمقارنة والتمييز والتبادل والسخرية إلخ.

2. لفظ الحجة، لكونه مستعارا من المنطق، يشير إلى وحدة entité تنطبق عليها وظيفة، ومن أجلها تملك قيمة.

3. ولن نكشف جديداً إذا قلنا إن دلالات الحجة تتعدد بحسب الحقل النظري الذي يحتضن التعريف، وكذلك وفقا للتصور الحجاجي المعتمد. فالحجة لدى تولمين هي تنسيق بين

[39] Jean Dubois (en collaboration), **Dictionnaire de linguistique et des sciences du langage**, , (Paris :Larousse 1994), p 49.

قضية ودليل raison أو أدلة تسعى لإثباتها أو البرهنة عليها. ولهذا تمارس الحجة l'argument وظيفة تسويغية أساسية وتبقى وظائفها الأخرى الممكنة ثانوية وربما هامشية (طفيلية) parasitaires بالنسبة لتلك الوظيفة المسوغة justificatrice.

4. وبناء على خاصية تعدد أشكال الحجاج اتجه تولمينإلى إدماج مفهوم أساسي هوالحقل fieldحتى يتم تحليل انتماء الحجج إلى نمط منطقي خاص.[40]

أما الحجة، في نظرية الحجاج اللغوي، فهي عنصر دلالي يخضع لاستخدام خاص من قبل المتكلم، لصالح عنصر دلالي آخر: «ونشير إلى أن مفاهيم الحجة والنتيجة كانت، في التصور السابق الذي نجده عند ديكرو، وخاصة في كتابه "السلميات الحجاجية" عبارة عن أقوال، أما في التصور الذي نجده في أعماله الأخيرة، فإن هذه المفاهيم أعطيت لها دلالة واسعة ومجردة. فالحجة، حسب هذا التصور الجديد، عبارة عن عنصر دلالي يقدمه المتكلم لصالح عنصر دلالي آخر، والحجة قد ترد في هذا الإطار على شكل قول أو فقرة أو نص، أو قد تكون مشهدا طبيعيا أو سلوكا غير لفظي إلى غير ذلك. والحجة قد تكون ظاهرة أو مضمرة بحسب السياق، والشيء نفسه بالنسبة للنتيجة والرابط الحجاجي الذي يربط بينهما.»[41]

هكذا تكون الحجة قولا أو مشهدا طبيعيا أو إشارة أو سلوكا غير لفظي. كما تكون نصا أو خطابا دينيا أو سياسيا أو مثلا سائرا أو حكمة متداولة. ولأن الحجة والنتيجة معا عنصران دلاليان، فإن تحديد القيمة التداولية لكل منهما لا يتم إلا وفقا لمتطلبات السياق أو المقام الذي يحيط بعملية التلفظ ذاتها، وليست الحجة أو النتيجة معطى سابقا يمكن استغلاله بهذه الصفة ضمن تسلسلات الخطاب.

---

[40] Philippe Breton, Gilles Gauthier : **Histoire des théories de l'argumentation**, op. cit, p 57.

[41] أبو بكر العزاوي، **اللغة والحجاج**، ص18.

وقد لاحظ طه عبد الرحمن أن لفظ "الحجة" قد استعمل مرادفاً لـ"الدليل" عند البعض، ولكن غلب على البعض الآخر استعماله بمعنى أخص.ثم أورد وجهين تختص بهما الحجة من دون الدليل:[42]

أ. إفادة الرجوع أو القصد، ذلك أن الحجة مشتقة من الفعل: "حج"؛ ومن معاني هذا الفعل معنى "رجع"، فتكون الحجة أمرا نرجع إليه أو نقصده، ولا نرجع إليه أو نقصده إلا لحاجتنا إلى العمل به، فالحجة بهذا المعنى هي الدليل الذي يجب الرجوع إليه للعمل به.

ب. إفادة الغلبة، ذلك أن الفعل: "حج" يدل أيضا على معنى "غلب"، فيكون مدلوله هو إلزام الغير بالحجة، فيصير بذلك مغلوبا؛ ويتبين من هذا المعنى أن الحجة ترد في سياق الجدل والمناظرة، إلا أن ورودها في هذا السياق قد يكون بقصدين: إما بقصد طلب العلم ونصرة الحق، وقد ينتج عن هذه النصرة غلبة الخصم، وإما بقصد طلب الغلبة ونصرة الشبهة، من غير أن ينتج عن حصول الغلبة حصول العلم.

هكذا بنى طه عبد الرحمن على المعنيين السابقين تعريفاً للحجة بأنها بالذات الدليل الذي يقصد للعمل به، ولتحصيل الغلبة على الخصم، مع نصرة الحق أو نصرة الشبهة. بينما يكون "الدليل" أعم من "الحجة"، فلا يقصد للعمل به فحسب، بل قد يوضع لمجرد النظر فيه كما لا يؤتى به في موطن الرد على الخصم فقط، بل قد يبنى في موطن مستقل عن أية خصومة.

وبخصوص تحديد أنواع الحجج فالمعلومأن أرسطو كان سباقاً إلى تحديد الأنواع التي يلجأ إليها الخطاب الحجاجي، فقد ظل «يميز بين ثلاثة أنماط من الحجج preuves التي يوظفها الخطاب الحجاجي: الحجج التي تستند إلى صورة المتكلم لدى السامع (إيتوس

[42] طه عبد الرحمن، **اللسان والميزان أو التكوثر العقلي**، ص 137.

l'éthos)، والحجج التي تستند إلى اللغة ذاتها (لوغوسle logos) وأخيرا تلك التي تعتمد علىانفعالات السامع وعواطفه(باتوس le pathos).»[43]

ثم جاء بيرلمان ليميز بين أربع تقنيات حجاجية كبرى:[44]

الحجج شبه المنطقية quasilogiques المتمثلة في التضاد والتعريف والمقارنة والهوية والتعدية وقاعدة الإنصاف.

1. تقنيات الربط التي تجمع بين عناصر متمايزة، سواء الربط الموجود سلفا في الواقع،

2. أو الربط الذي يؤسس بنية الواقع.

تقنيات التفكيك (الفصل) Dissociation التي تفصل بين العناصر التي تعد في الأصل جزءا من كل.

ويقدم هذا الجدول المأخوذ عن "تاريخ نظريات الحجاج" تفصيلا لأنواع الحجج المستخدمة، حسب بيرلمان:[45]

تفكيك	**ربـــط**		
تفكيك المفاهيم	صلات تؤسس بنية الواقع	حجج مؤسسة على بنية الواقع	حجج شبه منطقية
تفكيك	مثال، نموذج، تماثل، إيضاح، استعارة	ترابط التعاقب، ترابط التواجد	تضاد، هوية، تعريف، قاعدة الإنصاف، تعدية، مقارنة

وفي تصور تولمين نجد تمييزا بين أنواع مختلفة من الحجج:[46]

[43] Philippe Breton, Gilles Gauthier,**Histoire des théories de l'argumentation,** p 24.

[44] Perelman Chaïm : **L'empire Rhétorique, Rhétorique et Argumentation**, (Paris :Librairie Philosophique J. VRIN, 1977), pp 69-151.

[45] Philippe Breton, Gilles Gauthier,**Histoire des théories de l'argumentation**, p 41.

- حجج تحليلية analytiques وحجج جوهرية substantiels.

- حجج صحيحة بشكلقطعي وحججصحيحة بشكل ظني arguments non formellement valides.

- حجج تستخدم مسوغا warrant-using وحجج تؤسس مسوغا warrant-establishing،

- حجج تحوي ألفاظا منطقية وحجج لا تحوي ألفاظا منطقية.

- حجج ضرورية arguments nécessaires وحجج محتملة arguments probables.

وفي تصنيف بيير أوليرون، نعثر على أنماط مختلفة من الحجج:[47]

إيقاظ وتوجيه الحوافز أو البواعث motivations، والحجج ينبغي أن تراعى تحت مظهرين اثنين: القدرة على الإيقاظ أو التعبئة من جهة، وتحديد الاختيارات من جهة أخرى.

1. الاستناد إلى الوقائع، وهي كل المعطيات القابلة للملاحظة، سواء قدمت مباشرة أو من خلال الوثائق والمستندات، أو رويت من قبل الشهود. وهذا يرتبط بالثقافة المهيمنة في مجتمع معين.

الاستناد إلى المقتضيات التي تعد بمثابة مبادئ مقبولة في مجتمع معين. وتكون في حالات كثيرة ضمنية، أي غير مصرح بها. وهي، في نهاية المطاف، مجموعة من المعايير والقيم.

2. تضمين المرسل في الحجاج: وهو يتألف من مظهرين لا ينفصلان دائما في الممارسة؛ من جهة، يمكن أن يستدعى المرسل بفعل شخصيته ذاتها، وما تتمتع به من خصال مشهورة، وهذا يتم في استقلال عن محتوى أو شكل الرسالة. ومن جهة ثانية، يمكن

[46] ibid.p 59..

[47] Pierre Oléron : **L'ARGUMENTATION**,p 65-105.

أن يستدعى من خلال الرسالة التي يوحي محتواها أو شكلها بتلك الشخصية، وهذا من أجل ممارسة ضغط على الجمهور. وتمثل حجة "السلطة" التعبير النموذجي لثقل المرسل في الحجاج.

اللجوء إلى الانتقاء (الذي لا يظهر بوصفه قرارا للشخصية، لكن بوصفه تعبيرا عن الحقيقة) والتأهيل qualification والتأويل، لاسيما للوقائع والوضعيات.

3. التشبيه والتفكيك والخلط (assimilation- dissociation- amalgame).

وفي نظرية الحجاج اللغوي، تكون الحجة عبارة عن عنصر دلالي يقدمه المتكلم لصالح عنصر دلالي آخر، هو النتيجة. ووفقا لهذا التصور، فإن تصنيف الحجج لا يخضع للأنماط المذكورة لدى أرسطو وبيرلمانوأوليرون، لأن اللغة أصلا ذات وظيفة جوهرية، هي الحجاج. وعليه، فإن سائر العبارات والألفاظ تصلح، مبدئيا، لتؤدي وظيفة استدلالية وتنحو إلى تحقيق التأثير والإقناع.

ومن زاوية أخرى، «تميز البنية النحوية للغة بين حجة ممكنة argument possible وحجةقاطعة argument décisif .(...) ينبغي إذاً، من أجل وصف الصيغ الإضرابية les concessives، أن نلتجئ إلى التصور التالي: "أن نعتبر **أ** صالحة حجاجيا لدعم **ن**"، قاصدين بهذا: "أن نقبل بأنشخصا ما يستطيع الاحتجاج للنتيجة **ن** بواسطة **أ** إذا كان يعتقد كذلك بصحة **أ** وليس محقا، فضلا عن ذلك،في أن يرفض **ن**".»[48]

يخضع تصنيف الحجج، في نظر ديكرو، لمعيار القوة الذي يمكن من تحديد سلم حجاجي ينتظم فئة من الحجج. ولهذا يتحدث ديكرو عن أهمية التمييز بين الحجة القاطعة والحجة العادية. ثمة حجة يمكنها أن تسمح بنتيجة دون أن تفرضها على المخاطب. وهذا

[48] Jean-Claude Anscombre et Oswald Ducrot , **L'argumentation dans la langue**, (Pierre Mardaga éditeur, Bruxelles, 1983), p 31.

التمييز سيسمح لنا بإقامة تراتبية للحجج، نصادف بموجبها حججا أقوى أو أضعف من غيرها.[49]

ونحن نرى، مع غيرنا، أن مفهوم القوة غير واضح نسبيا، وتقييمه ذاتي عموما. ويؤخذ هذا المفهوم بعين الاعتبار حينما يتعلق الأمر بترتيب الحجج: أيتم البدء بالحجج القوية ثم الضعيفة أم العكس؟ ولكل وضع ترتيبي إيجابيات وعلى كلٍّ اعتراضات.[50]

إن تصنيف الحجج يخضع، في كل بناء نظري، لزاوية معرفية محددة أو لنقطة ارتكاز معلومة، إن تصريحا أو تلميحا. وبحسب نظرية تكوثر الكلام والخطاب والحجاج لدى طه عبد الرحمن، وانسجاما مع إطاره النظري التداولي الذي يحوي الحجاج ومراتبه وعلاقته، نجد ثلاثة أصناف:[51]

1. "الحجة المجردة" أو "الحجة التجريدية":هي الحجة بوصفها بناء استدلاليا يستقل بنفسه.

2. "الحجة الموجهة" أو "الحجة التوجيهية": هي الحجة بوصفها فعلا استدلاليا يأتي به المتكلم.

3. "الحجة المقومة" أو "الحجة التقويمية": هي الحجة بوصفها فعلا استدلاليا يأتي به المتكلم بغرض إفادة المستمع مع نهوض المستمع بتقويم هذا الفعل.

5. **المبحث الخامس: التواصل والحجاج:** في المقامات التواصلية، يكون المتكلم متأثرا بالوضعية الخطابية التي يريد استغلالها، بشكل أفضل، لتحقيق أهدافه الصريحة أو الضمنية. هكذا، يكون الخطاب الصادر عنه مشفرا مما يستدعي عملية تفكيك وتأويل

[49] O.DUCROT, **les échellesargumentatives**, p 17.

[50] Pierre Oléron : **L'ARGUMENTATION**,p111.

[51] طه عبد الرحمن، **اللسان والميزان**، مرجع سابق، ص ص 255-256.

من لدن المخاطب. وليس تفكيك شفرة الحجاج عملية بسيطة. إنه يتألف من مستويات عديدة:

1. تأويل المحتوى المادي للرسالة، وهذا ما يستتبع بوضوح وحدة اللغة.

2. إدراك الترابط المعنوي، أي العلاقة بين الأطروحة والحجاج الذي يدعمها.[52]

لا ينفصل الحجاج عن التواصل، لأنهما معا وجهان متضامنان في كل تخاطب إنساني. ولا ينفصل الحجاج أيضا عن الإقناع، لأن كل متكلم يسعى بالضرورة إلى تعديل الآراء التي يؤمن بها مخاطبوهإذ «تستمر الصلة بين الحجاج والتواصل عبر تلك الصلة القائمة بين الحجاج والإقناع. تمتلك الحجة غاية إقناعية جوهرية؛ فهي تهدف إلى جعل مخاطب أو مستمع يعتقد رأيا أو يتبنى سلوكا. ويقتضي الاهتمام بالحجة الاهتمام بالإقناع: ففي الوقت الذي يُنتبه إلى المسالك التي تسمح بتحصيل القبول أو التصديق، يقع الإلحاح على الحجج والدواعي التي يلجأ إليها لهذه الغاية. غالبا، يكتسب الانشغال بموضوع الإقناع دلالة اعتبارية؛ فتحليل الحجج يزدهر بشكل خاص حينما تكون شرعية المسالك الإقناعية والإقناع نفسه موضع خلاف.»[53]

تنكشف إذاً بوضوح الصلة بين الحجاج والتواصل والإقناع، فتمنح الباحث مجالا نظريا للتأمل والاستقصاء، وتسمح برصد الإمكانات الحجاجية للمتكلم، بالموازاة مع إمكاناته التواصلية المندمجة. وثمة ثلاثة عناصر أساسية تسمح بتحديد أفضل لحقل الحجاج:[54]

---

[52] Pierre Oléron : L'**ARGUMENTATION**, p 24.

[53] Philippe Breton, Gilles Gauthier : **Histoire des théories de l'argumentation**, p :4.

[54] Philippe Breton, **L'argumentation dans la communication**, (Paris: La Découverte, Repères 204. 2001), pp 16-17.

- الحجاج يعني أولا التواصل: نحن إذاً في "وضعية التواصل"، التي تستوجب، ككل وضعية من هذا النوع، وجود شركاء ورسالة. تستوجب حركية حقيقية؛

- الحجاج لا يعني تحقيق الإقناع بأي ثمن، وهذا يقتضي قطيعة مع التلاعب من الجهة التي لا يكون فيها هذا الأخير شديد الحرص على وسائل الإقناع؛

- الحجاج هو أن تستدل، أن تقترح على آخرين رأياً، مُقدما إليهم حججا كافية للالتزام به.

ويحدد فيليب بروتون ما يسميه "المثلث الحجاجي" حيث تتآلف العناصر، بعضها مع بعض، لتحدد الإطار التواصلي الذي تتم فيه عملية الحجاج: «نستطيع في الواقع، أن نميز، في الحجاج، بين المستويات التالية:

- رأي الخطيب؛ وهو ينتمي إلى مجال المحتمل، سواء تعلق الأمر بأطروحة، أو قضية، أو فكرة، أو وجهة نظر. هذا الرأي موجود بهذه الصفة، قبل أن تعاد صياغته بوصفه حجة؛

- الخطيب، الذييحاجج، لنفسه أو لأجل الآخرين؛

- الدليل الذي يدافع عنه الخطيب؛

- المستمعين الذين يسعى الخطيب إلى إقناعهم بالتزام الرأي الذي يقترحه عليهم. قد يتعلق الأمر بشخص أو جمهور...

- سياق التلقي الذي يرتبط بمجموع الآراء والقيم والأحكام التي يتقاسمها جمهور معين...»[55]

وبإمكاننا أن نستعير هذه الخطاطة من فليب بروتون، وهي شكل توضيحي لفكرة المثلث الحجاجي:[56]

[55] ibid. pp :18-19.

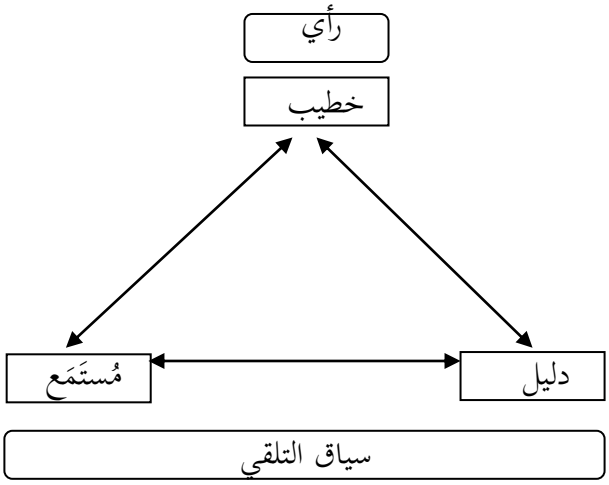

أما نظرية الحجاج اللغوي فهي تلح على كون الحجاج ليس نوعا من أنواع الخطاب، وليس عملية نلجأ إليها حينما نريد، بل هو خاصية جوهرية للسان الطبيعي، ومؤشر له في بنيته التركيبية. وهذا المنظور ينعكس على موضع التواصل في نظرية الحجاج اللغوي، إذ يسمح بالقول إن الحجاج لا يتم بدون تواصل كما أن التواصل لا يتم بدون حجاج استنادا إلى مبدإ عام هو: (لا تواصل من غير حجاج ولا حجاج من غير تواصل).«فالحجاج مرتبط بكل أشكال التواصل، ومنه الخطاب البصري والصورة الإشهارية، بل الصورة والأيقون بشكل عام. والتواصل قد يكون باللغة أو بغير اللغة، والحجاج هو الآخر قد يكون لغويا أو غير لغوي.»[57]

بينما نجد التواصل – عند طه عبد الرحمن- لا يمثل سوى جزء من التخاطب بما أن هذا الأخير يبنى على ركنين اثنين، هما: التواصل والتعامل. كما أن لفظ "التواصل" يظل، على كثرة تداوله وروده في قطاعات معرفية مختلفة، لفظا يكتنفه العموم والإجمال، إن لم

[56] ibid. p :20.

[57] حوار مع أبي بكر العزاوي، **جريدة بيان اليوم**، المغرب، عدد 2006/12/2.

يكتنفه الغموض والإبهام؛ فبحسب استعمالاته المختلفة، فإنه قد يدل على معان ثلاثة متمايزة فيما بينها:[58]

1. نقل الخبر؛ ويصطلح على تسمية هذا النقل بـ"الوصل"، نظرا لأن هذا المصطلح يفيد معنى الجمع بين طرفين بواسطة أمر مخصوص، فالوصل لا يكون إلا بـ"واصل"، والواصل هنا هو بالذات "الخبر".

2. نقل الخبر مع اعتبار مصدر الخبر الذي هو المتكلم؛ ويصطلح على هذا الضرب من النقل باسم "الإيصال".

3. نقل الخبر مع اعتبار مصدر الخبر الذي هو المتكلم واعتبار مقصده الذي هو المستمع معا؛ ويصطلح على هذا النوع من النقل باسم "الاتصال".

هذه الدلالات الثلاث، الوصل والإيصال والاتصال، تظهر تلازما بين الحجاج وعملية النقل أو التواصل، الأمر الذي جعله يميل إلى القول «بأن لفظ "الحجاج" لا يدور على الألسن مثلما يدور عليها لفظ "التواصل" ولو أنه لا تواصل باللسان من غير حجاج، ولا حجاج بغير تواصل باللسان»[59].

ولما كان كل حجاج تواصلا، حسب طه عبد الرحمن، فإننا سنحصل على ثلاثة نماذج تواصلية للحجة،وهي:[60]

أ. النموذج الوصلي للحجة، تكون فيه الوظيفة التواصلية للحجة وظيفة وصل، إذ يعامل الحجة معاملة البناء الاستدلالي المستقل الذي تكون عناصره موصولة وصلا تاما.

[58] طه عبد الرحمن، **اللسان والميزان**، ص 254.

[59] طه عبد الرحمن، **اللسان والميزان**، ص254.

[60] طه عبد الرحمن، **اللسان والميزان**، ص ص255-256.

ب. النموذج الإيصالي للحجة، تكون فيه الوظيفة التواصلية للحجة وظيفة إيصال، لأنه يجعل من الحجة فعلا استدلاليا يتوجه به المتكلم إلى المستمع.

ج. النموذج الاتصالي للحجة، تكون فيه الوظيفة التواصلية للحجة وظيفة اتصال، إذ ينظر في الحجة بوصفها فعلا مشتركا بين المتكلم والمستمع، جامعا بين توجيه الأول وتقويم الثاني.

إن النموذج الوصلي هو بعبارة أخرى تصور مجرد للحجة يستند إلى نظرية الإعلام الحديثة ويستعمل مفاهيمها المتعلقة بتقنيات المواصلات في وصف التواصل الإنساني. أما النموذج الإيصالي فهو يأخذ بما يسمى ب"نظرية الأفعال اللغوية" التي تعود إلى أوستين وسورلوغرايس وغيرهم. وأما النموذج الثالث فإنه يستند إلى "نظرية الحوار"، ويشتغل بدور المتكلم والمستمع معا، ويركز على علاقة التفاعل الخطابي.

أما من جهة العلاقة بين التواصل والتخاطب، فإننا نرى رأي طه عبد الرحمن الذي جعل الثاني مبنيا على الاختصار، والأول مبنيا على التطويل، «إذ يكون خفاء الانتفاع المطلوب سببا في إطالة المقال، طمعا في استدراك ما فات والحصول على ما يظهر به هذا الانتفاع، خاصا أو مشتركا؛ فيتضح حينئذ أن هذه الإطالة ليس مردها إلى عوائق تعترض الجانب التواصلي، وإنما إلى جانب ثان يؤدي الإخلال به إلى تعثر التخاطب على الرغم من وجود تام التبليغ لمضامين الأقوال التي يتكون منها»[61].مع العلم أن الجانب الذي قد يختل في التخاطب من غير أن يختل جانبه التواصلي هو بالذات "الجانب التعاملي"، فليس التخاطب تواصلا فقط، بل هو أيضا تعامل، وكل تعامل يوجب مراقبة جهة العمل منالقول كما أن التواصل يوجبمراقبة جهة الفائدة أو الخبر منه، فينبغي إذن أن يقارن العمل الفائدة في كل قول قول متى أريد البلوغ به إلى الانتفاع المطلوب.

[61] طه عبد الرحمن، **اللسان والميزان**، مرجع سابق، ص 217.

خاتمة:

إن دراستنا في هذه الورقة البحثية انصبت بشكل عام على بيان بعض النظريات والتصورات التي بنيت في مجال الاستدلال والحجاج وما اتصل بهما من مفاهيم الكلام والخطاب والتواصل، وبشكل خاص على ما أبدعه الفيلسوف والمنطقي واللغوي الكبير طه عبد الرحمن في ذات المجال.

ولا يخفى أن اهتمامنا بالكشف عما قدمه أرسطو وبيرلمان وتولين وديكرو وغيرهم إنما كان لأجل غاية محددة هي بيان ما تميز به عالم اللغويات والمنطقيات طه عبد الرحمنومن ثم كشف بعض الملامح الإبداعية التجديدية فيإنتاجه اللغوي والمنطقيالغني؛ ولا يسعنا في هذه الفقرة الختامية سوى أن نُذَكر ببعضها ونضيف أخرى على جهة الاختصار لا التطويل.

1. أول تلك الملامح يكمن في ثنائية الاستيعاب والتجاوز؛ ذلك أنالباحث في تآليفطه عبد الرحمن يقف على حقيقة استيعابه لمجمل النظريات والمفاهيم الاستدلالية الحجاجية والبرهانية، واقتداره في مضمار الجمع بين الإفادة من التراث الإسلامي اللغوي والفلسفي والمنطقي والأصولي من جهة وبين الإفادة من الإنتاج الغربي في ذات المجال. بل إنه استطاع تحقيق التجاوز من خلال تشييد بناء نظري قائم متكامل الأجزاء والحلقات، لا يفتأ يتكوثر حينا بعد حين.

لهذا يتلمس الباحث إبداعاً بيناً يتنافى مع ما نجده لدى كثير من الباحثين في قضايا الحجاج وتحليل الخطاب؛ فهؤلاء يسلكون مسلك نقد بعض المفاهيم والاستدراك على بعض التصورات المتناثرة في المباحث المختلفة، بينما يعمد طه عبد الرحمن إلى إدماج نقده لها ضمن بناء نظري له منطلقاته وأصوله وامتداداته.

2. ثاني الملامح هو اقتدار طه عبد الرحمن في مضمار استثمار الدلالات اللغوية العربية في بناء المفاهيم وتقويم النظريات. ومثالنا في هذا السياق ما وجدنا في تمييزه بين الحجة والدليل،

من حيث اختصاص اللفظ الأول بالدلالة على معنيين هما إفادة الرجوع والقصد وإفادة الغلبة.ومن ثم بنى طه عبد الرحمن على المعنيين السابقين تعريفاً للحجة بأنها بالذات الدليل الذي يقصد للعمل به، ولتحصيل الغلبة على الخصم، مع نصرة الحق أو نصرة الشبهة. بينما يكون "الدليل" أعم من "الحجة"، فلا يقصد للعمل به فحسب، بل قد يوضع لمجرد النظر فيه كما لا يؤتى به في موطن الرد على الخصم فقط، بل قد يبنى في موطن مستقل عن أية خصومة.

3. ثالث الملامح التجديدية في تآليفههو إنجاز تطبيقات للبناء النظري الاستدلالي عبر افتحاص التراث اللغوي والمنطقي والأصولي، واعتماد طرائق مخصوصة في تقويمه واستثماره بما يفتح آفاقا واسعة أمام العقل الإسلامي الذي ظل مكبلا بقيود التقليد والجمود تارة وبقيود الانبهار والذوبان في المنجز الغربي تارة أخرى. وإننا لنتطلع إلى دراسة تلك التطبيقات الاستدلالية الحجاجية التي أنجزها طه عبد الرحمن في مواضع أخرى إن شاء الله تعالى. والله الموفق والهادي إلى الصواب.